الرَّحْمَة
خلق دعوي وقيمة إسلامية

إعداد

الدكتور: توفيق بن عبدالعزيز السديري

وكيل وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة

والإرشاد لشؤون المساجد والدعوة والإرشاد

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد صلوات ربي وسلامه عليـهأما بعد:

فقد كانت البشرية قبل بعثة النبي محمد ﷺ في ضلالة عمياء وجاهلية جهلاء، لا تعرف معروفا ولا تنكر منكرا، أحسنُهم حالا من كان على دين محرّفٍ مبدّل، التبس فيه الحقّ بالباطل، واختلط فيه الصدق بالكذب، فبعث الله سبحانه نبيّه ومصطفاه محمّدا ﷺ بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، وكانت الرحمة المطلقة العامّة هي المقصد من بعثته صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[1]، فحصر سبحانه وتعالى المقصد من بعثة النبي ﷺ في تحقيق الرحمة للعالمين، والعالمون جميع الخلق، فالرحمة خصيصة سائدة في شرع الإسلام كله، كتابًا وسنة، ونظامًا وحياة، وتعاملاً مع الآخر، في كل حال من سلم أو حرب، ومن تمكين أو ضعف، كما في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾[2]، فالقرآن كله بمنزلة بصائر للقلوب، لأقوم حياة للناس كافة، وهداية للناس من الضلال، ورحمة للمهتدين به كما هو رحمة للمارقين من حيث تأخير عقوبتهم في الدنيا لعلهم يهتدون، فشريعة الإسلام رحمة كلها، فلا تكاد تجد قضية تناولها القرآن إلا وكانت الرحمة علتها ومقصدها، سببها وغايتها.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.

(٢) سورة الجاثية، الآية: ٢٠.

إلا أن هذا الدين دين الرحمة أضحى الآن يوصف بأنه دين الدم والإرهاب ويوصف نبيه ﷺ بأبشع الأوصاف من قبل أعدائه المغرضين وما الصور المسيئة منا ببعيد وذلك لأن أهله وأتباعه لم يقدموا الصورة الحقيقية لهذا الدين على المستوى العملي أو حتى المستوى النظري الذي يبرز جمال هذا الدين وكونه رحمة للناس جميعا لأن المسلمين لو تمكنوا من بيان هذا الدين للناس نظريا وعمليا لعلمت البشرية كلها أن سعادتها لا يمكن أن تتحقق إلا بإتباع هذا الدين.

- **أسباب اختيار الموضوع:**

١- بيان قيمة ومكانة الرحمة في الشريعة الإسلامية وما لها من أثر في الدعوة إلى الله.

٢- محاولة إبراز الصورة الحقيقية للإسلام ودعوته التي شوهها الإعلام الغربي.

٣- بيان سبق الإسلام للعناية بحقوق الإنسان وأن المبادئ العالمية لحقوق الإنسان ليست كما يدّعي الغرب وليدة الثورة الفرنسية.

٤- إثبات أنه ليس هناك معارضة بين الدعوة للجهاد والرحمة التي نادى بها الإسلام.

٥- عرض صورة ونموذج لمنهج النبي ﷺ وكيف دعا إلى الله تعالى.

- **مخطط البحث:**

ولقد اشتملت خطة البحث على ثمانية محاور وهي:

الأول: التعريف بمفهوم الرحمة.

الثاني: الرحمة في الإسلام أساس الدعوة.

الثالث: دعوة الإسلام إلى الرحمة العامة.

الرابع: دعوة الإسلام إلى رحمة الضعفاء خاصة.

الخامس: الحدود ودعوى تعارضها مع الرحمة.

السادس: الرفق بالحيوان دعوة إسلامية خالصة.

السابع: دعوى تعارض الرحمة مع الجهاد.

الثامن: الرحمة واجب دعوي.

المحور الأول: التعريف بمفهوم الرحمة:

الرحمة مشتقة من رحم قال ابن فارس: (رحم) الراء والحاء والميم أصلٌ واحدٌ يدلُّ على الرّقّة والعطف والرأفة. يقال من ذلك رَحِمَه يَرْحَمُه، إذا رَقَّ له وتعطَّفَ عليه. والرُّحُم والمَرْحَمَة والرَّحْمة بمعانٍ.

والرَّحِم: عَلاقة القرابة، ثم سمِّيت رَحِمُ الأنثى رَحِمًا من هذا، لأنّ منها ما يكون ما يُرْحَمُ وَيُرَقّ له مِن ولد" [1].

وقال الراغب: «الرَّحِمُ: رَحِمُ المرأة..، ومنه استعير الرحم للقرابة؛ لكونهم خارجين من رحم واحدة، يقال: رُحْم ورُحُم قال تعالى: ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾[2]، والرحمة رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم، وقد تستعمل تارة في الرقة المجردة، وتارة في الإحسان المجرد عن الرقة، نحو: رحم الله فلانا.

وإذا وصف به الباري فليس يراد به إلا الإحسان المجرد دون الرقة، وعلى هذا روي أن الرحمة من الله إنعام وإفضال، ومن الآدميين رقة وتعطف[3].

ولقد وردت الرحمة في القرآن الكريم في كثير من المواضع بمعانٍ كثيرة ووجوه متعددة وقد ذكر ابن الجوزي هذه الوجوه وهي على ستة عشر وجهاً، قال ابن الجوزي: الرحمة النعمة على المحتاج، قال ابن فارس: يقال رحم يرحم إذا رق والرحم والمرحمة والرحمة بمعنى واحد وذكر أهل التفسير أن الرحمة في القرآن على ستة عشر وجها، أحدها الجنة ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى

---

(١) مقاييس اللغة لابن فارس ٢٤٧/١ تحقيق عبدالسلام هارون، طبعة دار الفكر ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٨١.

(٣) مفردات غريب القرآن للراغب ٤٩٨/٢ تحقيق صفوان عدنان ذودي، طبعة بيروت ١٤١٢هـ.

سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[2]، وفي سورة النساء: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾[3]، وفي العنكبوت: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[4]، وفي الجاثية: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴾[5].

والثاني الإسلام ومنه قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾[6]، وفي سورة الإنسان: ﴿ يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ۚ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[7].

والثالث الإيمان ومنه قوله تعالى في سورة هود: ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴾[8].

والرابع النبوة ومنه قوله تعالى في سورة الزخرف: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٨.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٠٧.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٧٥.

(٤) سورة العنكبوت، الآية: ٢٣.

(٥) سورة الجاثية، الآية: ٣٠.

(٦) سورة البقرة، الآية: ١٠٥.

(٧) سورة الإنسان، الآية: ٣١.

(٨) سورة هود، الآية: ٢٨.

بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[1]، وفي سورة ص: ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴾[2].

والخامس القرآن ومنه قوله تعالى في سورة يونس: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[3]، وفي بني إسرائيل: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾[4].

والسادس المطر ومنه قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[5]، وفي سورة الروم: ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[6] وفيها: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[7].

والسابع الرزق ومنه قوله تعالى في بني إسرائيل: ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴾[8]، وفي سورة الكهف: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾[9]، وفيها: ﴿ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴾[10].

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٣٢.

(٢) سورة ص، الآية: ٩.

(٣) سورة يونس، الآية: ٥٨.

(٤) سورة إسرائيل، الآية: ٨٢.

(٥) سورة الأعراف، الآية: ٥٧.

(٦) سورة الروم، الآية: ٥٠.

(٧) سورة الروم، الآية: ٤٦.

(٨) سورة الإسراء، الآية: ١٠٠.

(٩) سورة الكهف، الآية: ١٠.

(١٠) سورة الكهف، الآية: ١٦.

والثامن النعمة ومنه قوله تعالى في سورة النساء: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[1] ، وفي سورة الكهف: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴾[2].

والتاسع العافية ومنه قوله تعالى في سورة الزمر ﴿ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾[3].

والعاشر النصر ومنه قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾[4].

والحادي عشر المنة ومنه قوله تعالى في سورة القصص: ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[5].

والثاني عشر الرقة ومنه قوله تعالى في سورة الحديد: ﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾[6].

والثالث عشر المغفرة ومنه قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[7].

---

(١) سورة النساء، الآية: ٨٣.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٦٥.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٣٨.

(٤) سورة الأحزاب، الآية: ١٧.

(٥) سورة القصص، الآية: ٤٦.

(٦) سورة الحديد، الآية: ٢٧.

(٧) سورة الأنعام، الآية: ٥٤.

والرابع عشر السعة ومنه قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1].

والخامس عشر المودة ومنه قوله تعالى في سورة الفتح: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[2].

والسادس عشر العصمة ومنه قوله تعالى في سورة يوسف: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[3].

وقد ألحق بعضهم وجها سابع عشر فقال الرحمة الشمس ومنه قوله تعالى في سورة الشورى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾[4][5].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧٨.

(٢) سورة الفتح، الآية: ٢٩.

(٣) سورة يوسف، الآية: ٥٣.

(٤) سورة الشورى، الآية: ٢٨.

(٥) نزهة الأعين النواظر لابن الجوزي ص ٣٣١- ٣٣٤ تحقيق محمد عبدالكريم كاظم، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

المحور الثاني: الرحمة في الإسلام أساس الدعوة:

أقيمت شريعة الإسلام على دعائم الرحمة والرفق واليسر. قال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾[2]، وقال النبي ﷺ: **(بعثت بالحنيفية السمحة)**[3].

وفي سورة النمل يقول تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[4]، وفي سورة لقمان: ﴿ الم ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ ﴾[5]، وهذا المعنى مهم في الرحمة لدرجة أن الله أمر نبيه أن يعرف الناس عليه صراحة، فقال تعالى في سورة يونس: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[6]، فهذا نداء من الله تعالى إلى الناس كافة أن يعلموا أن رسالة الله لهم هي شفاء وهدى ورحمة، فمن أراد الرحمة من الله تعالى فليكن من أتباع النبي الذي جاء بالموعظة من ربه وفيها الشفاء والهدى والرحمة، ولقد وصف الله تعالى رسالة الإسلام بأنها رحمة للناس كافة في قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا

---

(١) سورة الحج، الآية: ٧٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.

(٣) الحديث أخرجه أحمد في مسنده ٢٦٦/٥ والطبراني في المعجم الكبير ٣١١/٥ وأخرجه البخاري بلفظ (أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحاء) صحيح البخاري: ١٦/١ (كتاب بدء الوحي – باب الدين يسر).

(٤) سورة النمل، الآية: (٧٦- ٧٧).

(٥) سورة لقمان، الآية: (١- ٣).

(٦) سورة يونس، الآية: ٥٧.

رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾[1]، ثم إن الله تعالى وبعد إبرازه معنى الرحمة وكونها عامة يأمر الرسول - ﷺ - بأن يواجه المكذبين المستهزئين، بخلاصة رسالته التي تنبع منها الرحمة للعالمين: ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[2]، فهذا هو عنصر الرحمة الأصيل في تلك الرسالة، عنصر التوحيد المطلق الذي ينقذ البشرية من أوهام الجاهلية، ومن أثقال الوثنية، ومن ضغط الوهم والخرافة. والذي يقيم الحياة على قاعدتها الركينة، فيربطها بالوجود كله، وفق نواميس واضحة وسنن ثابتة، لا وفق أهواء ونزوات وشهوات، والذي يكفل لكل إنسان أن يقف مرفوع الرأس فلا تنحني الرؤوس إلا لله الواحد القهار.

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٨.

المحور الثالث: دعوة الإسلام إلى الرحمة العامة:

دعا الإسلام إلى رحمة عامة لا تختص بالمسلمين وحدهم، بل هي شاملة لهم ولغيرهم من المخلوقات في الدنيا، فقد أمر ﷺ أمته برحمة كل من أوجده الله تعالى على هذه الأرض، من إنسان وحيوان.

كما روى عبد الله بن عمرو ﷺ قَال: قال رسول الله ﷺ: **(الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء...)**[1]، والظاهر أن (مَن) الموصولة في قوله: (ارحموا من في الأرض) شاملة للإنسان مسلما أو كافرا، وللحيوان كذلك، وعلى هذا حمله العلماء.

قال الحافظ رحمه الله: " قال ابن بطال: فيه الحض على استعمال الرحمة لجميع الخلق، فيدخل المؤمن والكافر، والبهائم المملوك منها وغير المملوك، ويدخل في الرحمة التعاهد بالإطعام والسقي والتخفيف في الحمل وترك التعدي بالضرب.."[2]، وقد وردت أدلة أخرى يدل عمومها على أن هذا الشمول مقصود، فقد وصف الله تعالى المؤمنين بالتراحم بينهم، كما قال تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾[3]، والكفار الذين يكون المؤمنون أشداء عليهم، هم المحاربون لهم المعتدون عليهم، الذين يقاتلونهم ويخرجونهم من ديارهم، أو يدعمونهم على ذلك ويظاهرونهم، قال تعالى: ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه ٤/٤٤٠ (كتاب الأدب – باب الرحمة – حديث رقم ٤٩٤٣) والترمذي في سننه ٤/٣٢٣ (كتاب البر والصلة – باب رحمة المسلمين - حديث رقم ١٩٢٤) وأحمد في مسنده ٢/١٦٠ حديث رقم٦٤٩٤.

(٢) فتح الباري لابن حجر العسقلاني (١٠/٤٤٠) طبعة دار المعرفة، بيروت ١٣٧٩هـ.

(٣) سورة الفتح، الآية: ٢٩.

عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[1]، ونفى الله تعالى رحمته عمن لم يرحم الناس، كما في حديث جرير بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **(لا يرحم الله من لا يرحم الناس)**[2]، وهو نفي عام يدخل فيه كل الناس، والنفي هنا للوعيد والتحذير والتنفير من الغلظة والشدة والعدوان على الناس، ولا يلزم منه حرمان من فقد الرحمة الواجبة من رحمة الله له في الدنيا، بمنحه الرزق والصحة والقوة المادية والذرية وغيرها، سواء كان من المسلمين أو غيرهم، ابتلاء له وامتحانا، لأن رحمة الله في الدنيا تعم جميع خلقه [3].

ومن الأدلة على شمول رحمة الإسلام لكل الخلق أن جعل من يقوم على اليتامى، بالإنفاق والكفالة الشاملة التي يحتاجون إليها، شركاء لرسوله ﷺ في الجنة، كما في حديث سهل عن الرسول ﷺ، قال: **(أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا وأشار بالسبابة والوسطى)** وفرج بينهما شيئا[4]، وبين في حديث أبي هريرة ﷺ أنه يستوي في هذه المنزلة من كفل يتيما من أقاربه أو من غيرهم، فقال رسول الله ﷺ: **(كافل اليتيم – له أو لغيره – أنا وهو كهاتين في الجنة وأشار مالك**

---

(١) سورة الممتحنة، الآية: (٨- ٩).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحة ١٤١/٩ (كتاب بدء الوحي – باب قوله تعالي: "قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياما تدعوا فله الأسماء الحسنى).

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٢٣/١

(٤) أخرجه البخاري في صحيحة ٦٨/٧ (كتاب الطلاق – باب اللعان –حديث رقم٥٣٠٤)

بالسبابة والوسطى)[1]، وهو يشمل كذلك يتامى المسلمين وغيرهم، كما تدل عليه صيغة العموم، لأن "أل" في اليتيم للجنس، وأنزل ﷺ، من اهتم بالمحتاجين، وبخاصة الأرامل والمساكين، منزلة المجاهدين في سبيل الله، والمجتهدين في التقرب إلى الله بما يرضيه من فرائض العبادات ونوافلها ليلا ونهارا، كما روى أبو هريرة ﷺ قال: قَال النبي ﷺ: **(الساعي على الأرملة والمسكين، كالمجاهد في سبيل الله أو القائم الليل الصائم النهار)**[2]، وهذا السعي شامل لكل المحتاجين من المسلمين وغير المسلمين، وشامل كذلك لكل ما يحقق مصالحهم من طعام وشراب وكساء ومسكن وتطبيب ودفع ضر أو ظلم عنهم، لقد كانت رسالة محمد - ﷺ - رحمة لقومه ورحمة للبشرية كلها من بعده والمبادئ التي جاء بها كانت غريبة في أول الأمر على البشرية، لبعد ما كان بينها وبين الحياة الواقعية والروحية من مسافة. ولكن البشرية أخذت من يومها تقرب شيئا فشيئا من آفاق هذه المبادئ.

لقد جاء الإسلام ليسوي بين جميع الناس أمام القضاء والقانون، في الوقت الذي كانت البشرية تفرق الناس طبقات، وتجعل لكل طبقة قانونا. بل تجعل إرادة السيد هي القانون في عهدي الرق والإقطاع، فكان غريبا على البشرية في ذلك الوقت أن ينادي ذلك المنهج السابق المتقدم بمبدأ المساواة المطلقة أمام القضاء، ولكن ها

---

(١) أخرجه مسلم ٢٢١/٨ (كتاب الزهد والرقائق – باب الإحسان إلى الأرملة والمسكين ٧٦٦٠)

(٢) أخرجه البخاري في صحيحة ٨٠/٧ (كتاب الأدب – الساعي على الأرملة والمسكين – حديث رقم ٦٠٠٧) ومسلم في صحيحة ٢٢١/٨ (كتاب – الزهد والرقائق – باب الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم – حديث رقم ٧٦٥٩).

هي ذي شيئا فشيئا تحاول أن تصل - ولو نظريا - إلى شيء مما طبقه الإسلام عمليا منذ اثنين وثلاثين وأربعمائة وألف عام.

وغير هذا وذلك كثير يشهد بأن الرسالة المحمدية كانت رحمة للبشرية وأن محمدا - ﷺ - إنما أرسل رحمة للعالمين، من آمن به ومن لم يؤمن به على السواء. فالبشرية كلها قد تأثرت بالمنهج الذي جاء به طائعة أو كارهة، مستشعرة أو غير مستشعرة وما تزال ظلال هذه الرحمة وارفة، لمن يريد أن يستظل بها، ويستروح فيها نسائم السماء الرخيّة، في هجير الأرض المحرق وبخاصة في هذه الأيام.

المحور الرابع: دعوة الإسلام إلى رحمة الضعفاء خاصة:

تعد رحمة الضعفاء سمة من سمات الشريعة الإسلامية فقد حثت على الترفق بالضعفاء من أفراد المجتمع والأخذ بأيديهم نحو الكرامة الإنسانية، وقد تضافرت النصوص للدلالة على هذا الأمر، ولقد كان سلوك النبي محمد ﷺ ترجمة عملية لهذا الأمر، ولاغرو في ذلك فهو الرحمة المهداة فكلما قلبت النظر في سيرة وشمائل الحبيب ﷺ تجد الكمال في أخلاقه، والسمو في تعاملاته، فكمالات خُلُقه ﷺ آية كبرى، وعلم من أعلام نبوته، وقد مدحه الله عز وجل بقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[1]، ومن الكمال الخُلُقي الذي تحلى به رسول الله – ﷺ - خُلُقُ الرحمة والرأفة بالغير، فقد وهبه الله قلباً رحيماً، يرق للضعيف، ويحن على المسكين، ويعطف على الناس أجمعين، حتى صارت الرحمة له طبعا، فشملت الصغار والكبار، والمؤمنين والكفار، والخدم والعبيد.

ولما كانت طبقة الخدم في المجتمعات هي الأولى بالحنو والعطف عليها لضعفها وفقرها وما تلاقيه من صلف وتكبر وشدة وقسوة وكأنهم لا ينتمون للجنس البشري أردت أن أعرض صفحة ندية لتعامل النبي ﷺ مع هذه الفئة لعلنا نتذكر.

لقد تجلّت مظاهر رحمته ﷺ بالخدم والعبيد في أن جعل لهم حقوقا، وأمر بالرفق بهم، بل وحث على تحرير الرقيق من رقهم.

وإذا تتبعنا التوجيهات والتوصيات التي أوصى بها النبي – ﷺ – بهم، فسنعرف مقدار الاهتمام الذي حازته هذه الفئة من المجتمع، في

(١) سورة القلم، الآية: ٤.

وصايا النبي ﷺ، وقد ساهمت هذه الوصايا بشكل كبير في تحرير الأرقاء، ومن ثم وقفت قيادات قريش في وجه النبي ﷺ ودينه الذي يدعو إلى تحرير الرقيق، وينادي بالمساواة بينهم وبين السادة.

لقد اهتم رسول الله ﷺ بالمملوكين في حياته وأوصى بهم خيرا حين موته، فعن علي ﷺ قال: (**كان آخر كلام رسول الله ﷺ الصلاة الصلاة، اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم**)[1]، وحذر النبي ﷺ من ضرب المملوك أو إيذائه، فعن أبي مسعود الأنصاري ﷺ قال: (**كنت أضرب غلاماً لي، فسمعتُ مِنْ خَلْفِي صوتا: اعلم أبا مسعود: لله أَقدر عليك منك عليه، فالتفت فإذا هو رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، هو حر لوجه الله. فقَال: أما إنك لو لم تفعل للفحتك النار أَو لمستك النار**)[2]، بل حض الرسول ﷺ على المعاملة الحسنة لهم، حتى في الألفاظ والتعبيرات، فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (**لا يقولن أحدكم عبدي وأمتي، كلكم عبيد الله، وكل نسائكم إماء الله، ولكن ليقل غلامي وجاريتي، وفتاي وفتاتي**)[3].

وجعل النبي ﷺ كفارة ضرب المملوك عتقه، فعن عبد الله بن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (**.. من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته أن يعتقه**)[4]، كما نهى النبي ﷺ عن تكليف الخدم بأعمال شاقة

---

(١) الحديث أخرجه أحمد في مسنده ١/ ٢٩٠ حديث رقم ٢٦٥٢٦ وقال شعيب الأرنؤوط حديث صحيح لغيره.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحة ٥/ ٩٢(كتاب الإيمان – باب صحبة المماليك وكفارة من لطم عبده – حديث رقم ٤٣٩٨).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحة ٧/ ٤٦ (الألفاظ من الأدب – باب حكم إطلاق لفظ العبد والأمة – حديث رقم ٦٠١١).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحة ٥/ ٩٠ (كتاب الأيمان – باب صحبة المماليك وكفارة من لطم عبده – حديث رقم ٤٣٩٠).

تفوق طاقتهم، أو الدعاء عليهم، فقال ﷺ: **(لا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم)** [1].

وعن جابر بن عبد الله ﷺ قَال: قَال رسول الله ﷺ: **(لا تدعوا على أنفسكم، ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعوا على خدمكم، ولا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله تبارك وتعالى ساعةً نيل فيها عطاء فَيستجيب لكم)**[2].

وكان ﷺ يوصي أصحابه بالعفو عن إساءة الخدم وخطئهم، فعن عبد الله بن عمر ﷺ قال: **(جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله كم نعفو عن الخادم؟ فصمت، ثم أعاد عليه الكلام فصمت، فلما كان في الثالثة قال: أعفوا عنه في كل يوم سبعين مرة)**[3].

وأمر النبي ﷺ بالإحسان إلى الخدم، وعدم الاستهزاء بهم، بل وإطعامهم وإلباسهم من نفس طعام ولباس أهل البيت، فعن المعرور بن سويد قال: (لقيت أبا ذر بالربذة (موضع قرب المدينة)، وعليه حُلّة (ثوب) وعلى غلامه حُلة، فسألته عن ذلك فقال: إني سببت رجلاً، فعيرته بأمه، فقال لي النبي ﷺ: **(يا أبا ذر أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية، إخوانكم خَوَلُكُم (خدمكم وعبيدكم)، جعلهم الله تحت**

---

(١) أخرجه البخاري ١٩٥/٣ (كتاب الإيمان – باب قوله العبيد إخوانكم ... رقم ٢٥٤٥ – ومسلم ٩٣٠/٥ الإيمان – إطعام المملوك وإلباسه مما يلبس).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه ٤٧٩/١ (كتاب سجود القرآن – باب النهي عن أن يدعوا على ولده وخدمه – حديث رقم ١٥٣٢) قال أبو داود الحديث متصل الإسناد وقال الألباني صحيح.

(٣) الحديث أخرجه أبو داود في سننه ٥٠٦/٤ (كتاب الأدب – باب في حق المملوك حديث رقم ٥١٦٤).

أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم)[1].

ويحدثنا أنس ﷺ خادم النبي ﷺ عن رحمته ووصيته ﷺ العملية بالخدم فيقول: **(كان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خُلُقا، فأرسلني يوما لحاجة، فقلت: والله لا أذهب، وفي نفسي أن أذهب لما أمرني به نبي الله ﷺ، فخرجت حتى أمر على صبيان، وهم يلعبون في السوق، فإذا رسول الله ﷺ قد قبض بقفاي من ورائي، قال: فنظرت إليه وهو يضحك، فقال: يا أنيس، أذهبت حيث أمرتك؟ قال: قلت: نعم، أنا أذهب يا رسول الله..)**[2].

ويقول: **(خدمت رسول الله - ﷺ - عشر سنين، والله ما سبني سبة قط، ولا قال لي أف قط، ولا قال لي لشيء فعلته: لم فعلته، ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلته)**[3].

ولا شك أن شهادة الخادم لسيده صادقة، وخاصة من رجل كأنس ﷺ، الذي نقل عن النبي ﷺ إلى الأُمة آلاف الأحاديث، وكان معه كظله، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: **(ما ضرب رسول الله ﷺ خادما ولا امرأة قَط)**[4].

لقد ترك هذا التعامل أعظم الأثر في نفوس الخدم الذين اتصلوا بالنبي ﷺ، فقد استطاع عليه الصلاة والسلام أن يأسر قلوبهم ويملك

---

(١) أخرجه البخاري ٣/١٩٥ (كتاب الأدب – باب قوله تعالى يأيها الذين أمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى... رقم ٦٠٥٠ – ومسلم ٥/٩٣٠) كتاب الإيمان – إطعام المملوك وإلباسه مما يلبس حديث رقم ٤٤٠٣.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحة ٧/٧٣ (كتاب الفضائل – باب كان أحسن الناس خلقا حديث رقم ٦١٥٤).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحة ٧/٧٤ (كتاب الفضائل – باب كان أحسن الناس خلقا حديث رقم ٦١٥٥).

(٤) أخرجه مسلم ٧/٨٠ (كتاب الفضائل – باب مباعدته للآثام حديث رقم ٦١٩٥ وأبو داود في سننه ٤/٣٩٦) كتاب الأب – باب في التجاوز في الأمر رقم ٤٧٨٨.

مشاعرهم بسماحة أخلاقه وكريم شمائله، وقصة زيد بن حارثة ﷺ خادم النبي ﷺ شاهد على ذلك، فقد عاش زيد في بيته ﷺ، وظل يقوم على خدمته ويرعى شؤونه، حتى بلغت الأخبار إلى والده بوجوده عند النبي ﷺ، فانطلق مسرعاً إليه، وطلب من النبي ﷺ أن يرد له ولده، فنظر النبي ﷺ لزيد وقال: (**إن شئت فأقم عندي، وإن شئت فانطلق مع أبيك، فقال: بل أقيم عندك**)[1]، فاختار زيدٌ البقاء مملوكاً مع رسول الله ﷺ على الرجوع حراً مع أبيه، لما رآه من طيب عشرة وحسن خلق الحبيب ﷺ.

لقد فتح النبي ﷺ بهديه وشرعه الذي جاء به أبواباً متعددة لإخراج الرقيق من رقهم إلى سعة الحرية، فكان العتق هو الكفارة الأولى في قتل الخطأ، وفي جماع الرجل زوجته في نهار رمضان، وفي الظهار، وإذا أساء السيد إلى مملوكه بلطمه فليس لها كفارة إلا عتقه، كما جعل النبي ﷺ عتق الأرقاء وسيلة من وسائل التكفير عن الذنوب والخطايا، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: (**أيما امرئ مسلم أعتق امرأ مسلماً كان فكاكه من النار**)[2].

إن مظاهر رحمة النبي ﷺ قد حفلت بها سيرته وحياته، وامتلأت بها شريعته، فرحم الصغير والكبير، والقريب والبعيد، والمرأة والضعيف، واليتيم والفقير، والرقيق والخدم، وغيرهم فهل للمسلمين أن يتأسوا بنبيهم إقامة لدينهم ؟

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير ٤/٤٧٩ حديث رقم ٤٥١٩.

(٢) أخرجه الترمذي ٤/١١٧ (كتاب النذور والأيمان – باب فضل من أعتق – حديث رقم ١٥٤٧) وقال الألباني حديث صحيح وأخرجه بن ماجة في سننه ٣/٥٦٤ (كتاب أبواب العتق باب العتق حديث رقم ٢٥٢٢).

المحور الخامس: الحدود ودعوى تعارضها مع الرحمة:

وقد يعترض البعض ممن ليست لديهم دراية بجوهر الإسلام بالقول كيف تدعون الرفق بالحيوان وأنتم أشد قسوة على الإنسان فيما تسمونه بإقامة الحدود فتقطعون يد السارق وترجمون الزاني أو تجلدونه دون مراعاة لحقوق الإنسان أقول: من الحكمة أن نعلم أن الله تعالى لا يحب تعذيب خلقه، وما يشرع لهم إلا ما فيه صلاحهم، وحد السرقة على سبيل المثال روعي فيه زجر الفاعل، وحماية الأمن والأموال، وصيانة المجتمع عن أن يعيش في فوضى، ووضعت شروط لإقامة الحد، كأن يكون المسروق ذا قيمة مالية تبلغ نصابا، وأن يكون في شيء محفوظ، وألا يكون السارق محتاجا إلى ضرورة تتوقف عليها حياته، ولا سبيل له إلا السرقة، وأن يكون عاقلا بالغا.

وفي تطبيق حد السرقة حكمة تشريعية، فاستتباب الأمان في المجتمع من أجَلِّ النعم، وما أعظم أن يتحرك الإنسان كيف يشاء دون قلق على دمه أو ماله أو عرضه، عندما دعا إبراهيم ربه للبلد الذي أسسه طلب له أمرين اثنين، رزقا مكفولا وأمنا مستقرا، وقدم الأمن على الرزق، وهو يسأل الله حاجته ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾[1]، ولكي يشيع الأمان، ويطمئن كل إنسان شرع الله شرائع كثيرة، من أهمها حد السرقة، إن السرقة جريمة جديرة بالمطاردة والاستئصال، ووجودها مثار ضيق وقلق، فكيف إذا شاعت؟!

إن اللصوص اللئام يستولون على أموال الآخرين، فيتوسعون في إنفاقها ويبعثرونها في ملذاتهم دون حذر لأنهم ما تعبوا في كسبها.

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٦.

لا ريب أن المجتمع المحترم يجب أن يخلص من هؤلاء، وأن يرصد لهم العقوبة التي تقطع دابرهم، وتروع قريبهم وبعيدهم، إن اليد التي تقطع هي اليد التي ظلمت المجتمع، لا اليد التي ظلمها المجتمع، قال تعالى: ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1]، والبلاد التي نفذت قطع يد السارق هدأت أحوالها، وسادتها طمأنينة كاملة وأغناها قطع يد واحدة عن فتح سجون كثيرة يسمن فيها المجرمون، ثم يخرجون أشد ضراوة وأكثر قساوة، والسطو على مال الغير جريمة فيها قابلية للنماء والتجدد، وتتحول من رغبة في المال الحرام إلى جراءة على الدم الحرام، وما أيسر أن يقتل اللص من يعترض طريقه وهو يسرق، سواء أكان المعترض حارس الأمن، أو صاحب المال.

ويغلب أن يتعاون اللص مع اللص في إدراك مأربه، ومن هنا تتكون العصابات التي تقطع الطريق، أو التي تتقاسم المهام في إتمام أعمال السلب والنهب، والسجون ساحات ممهدة لدراسة هذه المعاصي وإحكام خطتها، وطبيعي أن يتضاعف العقاب في استفحال الجرم على هذا النحو، وكثيرا ما يكون السطو المسلح على السيارات والقطارات أو على الحقول والمتاجر[2]، وإن تعجب فعجب من تلك المنظمات التي تتذرع بحقوق الإنسان فتدعوا إلى تخفيف تلك العقوبات وما راعها ما يحدث من ترويع للمجتمعات بفعل هذه الجرائم، وإني

(١) سورة المائدة، الآية: (٣٨- ٣٩).

(٢) هذا ديننا للشيخ محمد الغزالي ١٧٦ – ١٧٩ طبعة دار الشروق ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

لشديد الريبة في ضمائر هؤلاء المدافعين، وأكاد أقول: ما يعطف على اللص إلا لص، ولا على القاتل إلا قاتل. وقد حسم الإسلام اللجاجة في مجازاة أولئك العابثين، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾[1]،

وهنا ثلاثة أمور لابد من تقريرها:

أولها: أنه لابد من الحفاظ على أموال الناس، وإقامة سياج منيع حولها، ورفض اشتهاء القاعدين الحصول عليها بالأساليب المعوجة، والحدود السماوية ضمان أكيد لهذا المعنى.

ثانيها: لا مكان للرحمة بمثيري الفوضى ومهدري الحقوق، فإن ترك هؤلاء فتح لأبواب العذاب على المجتمع كله، وإغراء بالظلم وإسقاط للقيم.

ثالثها: عندما يكون الانحراف خطأ عارضا، فالشارع أول المنادين بإقالة العثرات، وتيسير المتاب، وهو القائل: أن يخطئ الإمام في العفو خير من أن يخطئ في العقاب.

لكن البون شاسع بين تعطيل الحدود، والتدقيق في إيقاعها، وهناك من يكذب، فيقول: إن القطع أوجد جمهورا من العاطلين العاجزين عن العمل، وهذا اجتراء غريب، فإن القطع خلال أربعة عشر قرنا نفع ولم يضر، ولم يحس المجتمع بوجوده إلا على ندرة، لأن

(١) سورة المائدة، الآية: (٣٣- ٣٤).

الإرهاب بالقطع صرف اللصوص عن السرقة، وأغراهم بالبحث عن كسب معقول. و من عظيم ما يذكر في إقامة الحدود عموما، أن الحالات التي وقعت من إقامة الحدود في العهد النبوي وعصر الخلفاء الراشدين لم تتعد أصابع اليد، في حين أن الجريمة تحدث طبق إحصائيات وزارات الداخلية في العالم كل بضع دقائق، وهذا يعني أن في إقامة الحدود بركة للعالمين، إن البلاد التي قامت على تطبق الشريعة الإسلامية – والحدود جانب منها – تمتعت بالأمن والأمان التامين فبات مواطنوها قريري العين، فليس هناك خشية على المال أو العرض أو النفس؛ مما جعل الكثيرين ممن لا يريدون خيرا للإسلام والمسلمين تثور ثائرتهم تحت دعاوى حقوق الإنسان، وكأنهم يقولون كيف لهذه البلاد أن تحقق هذا القدر من الأمان، في الوقت الذي تسطوا فيه العصابات المنظمة على البلاد والعباد في الدول المتقدمة، فيهدر الدم ويسلب المال ويهتك العرض؟

إن في تطبيق الحدود الرحمة التامة لأن في إقامتها الحفاظ على المقاصد الشرعية التي لا تستقيم الحياة إلا بها، فهي رحمة للمجتمعات لأنها سوف تحقق الأمان الذي افتقدته البشرية في هذه الأيام ولكن أكثر الناس يجهلون.

المحور السادس: الرفق بالحيوان دعوة إسلامية خالصة:

لم تغفل الشريعة الإسلامية ما يتعلق بأحوال الحيوان في معاملة الإنسان إياه وانتفاعه به، إذ هو مخلوق لأجل الإنسان قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[2].

وقد أذنت الشريعة الإسلامية للناس في الانتفاع بما ينتفع به من الحيوان ولم تأذن في غير ذلك. ولذلك كره صيد اللهو وحرم تعذيب الحيوان لغير أكله.

لقد أرست الحضارة الإسلامية الأساس الأول لمبدأ الرفق بالحيوان، منذ أن بزغ نورها، خلافاً لما يظنه البعض أنه من وضع الحضارة الغربية، التي أخذت هذا المبدأ وطورته ونظمته تنظيماً دقيقاً، حتى صار الرفق بالحيوان من مزاياهم، وتوهم أبناء المسلمين أن الحضارة الإسلامية لم تعرف في يوم من الأيام هذه النظم والتشريعات التي تكفل للحيوان مثل هذه الرعاية، والأمر بخلاف ذلك، فالشريعة الإسلامية كانت الأسبق رعاية لحقوق الحيوان، بل والأكثر واقعية وتنظيما، وذلك لأن رعاية هذه الحيوانات كانت بأمر الشارع الحكيم، فكان المنطلق إيمانياً وواجباً دينياً في المقام الأول، فالحيوان البهيم قد أعطاه الإسلام حظه من الرحمة والشفقة

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٩.

(٢) سورة النحل، الآية: (٥- ٧).

والإحسان، وقد ذكر الرسول ﷺ لأمته بعض القصص المتعلقة بالرفق والرحمة بالحيوان، حضا لهم على تطبيق ذلك السلوك السوي الذي يحقق رحمة الله العامة بكل مخلوقاته في الدنيا.

ومن أمثلة ذلك: حديث أبي هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: **(بينما رجل يمشي، فاشتد عليه العطش، فنزل بئرا فشرب منها، ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي، فملأ خفه ثم أمسكه بفيه ثم رقِيَ، فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له، قالوا: يا رسول الله! وإن لنا في البهائم أجرا؟ قال: في كل كبد رطبة أجر)**[1].

وصح عنه ﷺ، أن الله غفر لامرأة بغي لسقيها كلبا اشتد عطشه كما في حديث أبي هريرة ﷺ: **(أن امرأة بغيا رأت كلبا في يوم حار يطيف ببئر، قد أدلع لسانه من العطش فنزعت له بموقها فغفر لها)**[2].

وإذا كان الله تعالى يغفر بعض كبائر الذنوب للمسلم برحمة الحيوان والرفق به، فإنه تعالى يعذب من نُزِعت الرحمة من قلبه، فيعذب الحيوان، كما في حديث ابن عمر ﷺ، عن النبي ﷺ، قال: **(دخلت امرأة النار في هرة ربطتها، فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض)**[3].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحة ٣/٤٧ (كتاب المساقاة – باب فضل سقي الماء حديث رقم ٢٣٦٣).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحة ٧/٤٤ (كتاب السلام – باب فضل ساقي البهائم المحترمة – حديث رقم ٥٩٩٧).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحة ٤/١٥٧ (كتاب بدء الخلق - باب سعة رحمة الله تعالى حديث رقم ٧١٥٨) ومسلم ٨/٩٨ (كتاب التوبة – باب سعة رحمة الله حديث رقم ١٥٦٦٧).

ونهى الرسول ﷺ عن ركوب الحيوان لغير غرض ومنفعة، وقد دخل رسول الله ﷺ على قوم وهم وقوف على دواب لهم ورواحل، فقال لهم: (**اركبوها سالمة أودعوها سالمة، ولا تتخذوها كراسي لأحاديثكم في الطرق والأسواق، فربَّ مركبة خيرٌ من راكبها، وأكثر ذكرًا لله منه**)[1]، بل إن الإسلام حث على رحمة الحيوان حال ذبحها فأمر الرسول ﷺ بالإحسان في القتل والذبح، فقال ﷺ: (**إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ**)[2].

فأين جمعيات الرفق بالحيوان من هذه الآداب النبوية الرشيدة وكيف ينكرون فضل الإسلام وقد سبقهم بأربعة عشر قرنا من الزمان! وما زالوا لا يفرقون بين ما هو حق وما ليس بحق، حيث إنهم يعتبرون الذبح على الطريقة الإسلامية نوعاً من القسوة ولا يعرفون الفوائد الكثيرة لطريقة الذبح الإسلامية أما هم فيصعقون ذبائحهم بالكهرباء، أو يضربونها على رؤوسها فتموت ثم يذبحونها، ويعتبرون ذلك من الرحمة بالبهائم، والمرء إذا لم يكن له هاد من الوحي خبط عشواء وتحكمت به الأهواء، وحسب كل بيضاء شحمة وكل سوداء تمرة، وتفاخر على غيره بما هو أصل المذمة والنقص، ولكن عين الهوى عمياء[3].

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٣/٤٣٩ حديث رقم ١٥٦٦٧ قال شعيب الأرنؤوط حديث حسن.

(٢) أخرجه مسلم ٦/٧٢ (كتاب الإمارة – باب الأمر بإحسان الذبح والقتل – حديث رقم ٥١٦٧).

(٣) المفصل في الرد على شبهات أعداء الإسلام، علي بن نايف الشحود ١٢/٤١٤.

المحور السابع: دعوى تعارض الرحمة مع الجهاد:

يدعي بعض أعداء الإسلام زوراً وبهتانا أن هذا الدين يتبطن في تعاليمه أشياء تحث على اعتماد منهج العنف في التغيير، وأنه يحرض أتباعه على ممارسة أساليب إرهابية في قمع أعدائهم وإخضاعهم لسلطانه، وينشر دعوته بهذه الطريقة ، ويستدلون على هذه الدعوى عادة ببعض الآيات والأحاديث التي تأمر المسلمين بالجهاد في سبيل الله، ويصرون على تصوير حقيقة الإسلام بهذا الواقع، وهذا مخالف لحقيقة دين الإسلام ، كيف لا وقد حصر الله - سبحانه وتعالى - رسالة نبيه الخاتم محمد عليه الصلاة والسلام في الرحمة للعالمين وإذا كان الإسلام ديناً بلغت الميول السلمية فيه مداها في قوله تعالى: ﴿ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ﴾[1]، إلا أن الميول السلمية لا تتسع لمنع القائمين بهذا الدين الجديد من الدفاع عن أنفسهم وعن دينهم الذي أنزله الله للإنسانية كافة، في عالم يضيع فيه الحق والعدل إن لم يكن لهما قوة تحميهما، فكان لا مناص من السماح للمسلمين بحماية أنفسهم ودينهم بالسلاح الذي يشهره خصومهم في وجوههم، ولذلك كان التعبير بقوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾[2].

أقول: كان التعبير بالإذن الذي يدل على المنع قبل نزول الآية يدل على طروء القتال في الإسلام وأنه ظل ممنوعاً طيلة العهد المكي وبعضاً من العهد المدني.

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٨٩.

(٢) سورة الحج، الآية: (٣٩- ٤٠).

هذا ولم يغفل الإسلام حتى في هذا الموطن موطن الدفاع عن النفس والدين أن ينصح لأتباعه بعدم العدوان؛ لأن الموضوع حماية حق لا موضوع انتقام ولا شفاء حزازات الصدور، الأصل أن يقوم المسلمون بدعوة غيرهم إلى هذا الدين، ليتمتعوا برحمة الله في منهج حياتهم في الدنيا، ولينالوا رضاه ورحمته في الآخرة، تحقيقا لقول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[1][2]، وأساس دعوتهم اللين والحكمة والموعظة الحسنة، كما أمر الله تعالى بذلك نبيهم، وأمره أمر لهم، فقال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾[3].

ولشدة حرص الرسول ﷺ على إيصال رحمة الله إلى عباده، رَغَّبَ المجاهدين في سبيل الله في دعوة الناس إلى هذا الدين، ورَبْطِ دعوتهم برجاء ثواب الله الجزيل على هداية خلقه، كما في حديث سهل بن سعد الساعدي ﷺ، أنه ﷺ قال لعلي ﷺ عندما أرسله إلى يهود خيبر: **(انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فو الله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من أن يكون لك حمر النعم)**[4].

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.

(٢) حقائق الإسلام في مواجهة حملات المشككين، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ١/ ٢٨٥، د/ محمود حمدي زقزوق وآخرين.

(٣) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

(٤) صحيح البخاري ٤/ ٧٣ (كتاب الجهاد – باب فضل من أسلم على يديه رجل – حديث رقم ٣٠٠٩) ومسلم في صحيحة ٧/ ١٢١ (كتاب فضل الصحابة – باب فضائل علي بن أبي طالب).

ومع أن المسلمين هداة رحماء، فهم يجاهدون في سبيل الله، من اعتدى عليهم وعلى دينهم، لا يخافون فيه لومة لائم، يحفظون بجهادهم ضرورات حياة البشر، من الدين والنفس والنسل والعقل والمال، وما يحوطها من الحاجيات والتكميليات، ويحمونها من عدوان المعتدين وظلم الظالمين.

فهم إما يجاهدون دفعا لعدوان المعتدين على المسلمين، وإما لإزالة من وقف أمام دعوة الله في أرض الله، لدعوة الناس إلى عبادة الله، لتقوم بذلك الحجة على خلق الله...[1]، ومن تتبع تاريخ جهاد المسلمين المنضبط بقواعد شرع الله تَبَين له أنه عام شامل لكل نشاط يحقق للمسلمين وللعالم ما فيه صلاحهم وسعادتهم، وأن القتال إنما هو جزء ضئيل من الجهاد الوارد في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ومعلوم كذلك أن الجهاد في سبيل الله لم يشرع لإكراه الناس على ترك دينهم والدخول في الإسلام، وإنما شرع لرد عدوان المعتدين، وتحطيم سدود القهر والاستبداد التي تحول بين الناس وبين التمتع بالحرية التي منحهم الله تعالى، فيدخلون في الإسلام بعد إقامة الحجة عليهم بأنه الحق مختارين راضين غير مكرهين، أو يبقون على دينهم الذي اعتقدوه، كما صرح الله تعالى بذلك في كتابه، وجرى على ذلك عمل الرسول ﷺ وأصحابه وأتباعهم، وسيبقى كذلك إلى يوم الدين، ما تمسك المسلمون بهذا الدين: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[2]، ولكن يجب على من رغب في البقاء على دينه، أن يلتزم بنظام الأمة العام الذي يأمنون فيه على ضرورات حياتهم وما يكملها.

---

(١) حقائق الإسلام في مواجهة حملات المشككين للدكتور محمود حمدي زقزوق وآخرين، طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة ٢٠٠٢م (١ / ٢٨٣).

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

أقول إن الرائد لا يكذب أهله هذه دعوى نعلنها للناس في مشارق الأرض ومغاربها، بأن هذا الدين، ليس عدوا لأحد من البشر، وإنما هو رحمة للعالمين، ونحن نؤمن بذلك إيمانا صادقا لا يشوبه شك، لثلاثة أمور:

الأمر الأول: اعتقادنا الجازم بأن القرآن حق، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم حق، وأن الإسلام هو الدين الحق الذي يعتبر كل ما يخالفه باطل وليس بحق.

الأمر الثاني: دلالة الواقع التاريخي في العصور التي طبق فيها الإسلام على صحة ما نقول.

فقد سعد الناس الذين حظيت بلدانهم بدخول المسلمين فيها بما لم يكونوا يحلمون به من العدل والرحمة والحضارة، في ظل الإمبراطوريات اليونانية والفارسية والرومانية، والشاهد على ذلك أن غالب تلك الشعوب أصبحت تدين بالإسلام، بالدعوة المجردة من السلاح في أغلب المعمورة، ولم يستعمل المسلمون السلاح إلا عندما يقف البعض ضد حرية الدعوة وضد سماع الناس الحق سواء آمنوا به أم لا؟، والدليل على ذلك قلة الشعوب التي فتحها المسلمون عنوة، وكثرة الشعوب التي دخلت في الإسلام عن طريق التجار والدعاة المخلصين في بلدان آسيا وأفريقيا وغيرها.

الأمر الثالث: المقارنة النظرية بين ما تضمنه القرآن والسنة والسيرة النبوية، وأبواب التشريع الإسلامي في كتب الفقه وغيرها، عن حقوق الإنسان، رجلا وامرأة، صغيرا وكبيرا، فردا وأسرة، ومجتمعا، حاكما ومحكوما، وبين ما تضمنته القوانين الدولية المعاصرة في ذلك.

إن المنصف الذي يقارن بين ما تضمنه الإسلام وبين ما تضمنته تلك القوانين، ويتجرد من التعصب والهوى، سيجد في تشريع الإسلام كل ما تضمنته تلك القوانين من إيجابيات في أعلى صورها والمزيد الذي لم تتعرض له، مع تجنب التشريع الإسلامي السلبيات التي احتوت عليها تلك القوانين.

المحور الثامن: الرحمة واجب دعوي:

أرسل الله تعالى رسوله محمدًا ﷺ رحمة للعالمين قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾[1]، وقال ﷺ: (**إنما أنا رحمة مهداه**)[2]، كما وصفه ربه بها وقد كانت هذه الصفة هي المهيمنة على سلوكه فقال جل شأنه: ﴿ لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾[3]، بل أكد رب العالمين أن فضيلة الرحمة التي برزت في سلوكه كانت وراء النجاح العظيم الذي حققه في ميدان الدعوة إذ يقول سبحانه وتعالى: ﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ ﴾[4]، فهي رحمة الله التي نالته ونالتهم فجعلته عليه الصلاة والسلام رحيما بهم، لينا معهم، ولو كان فظًا غليظ القلب ما تألفت حوله القلوب ولا تجمعت حوله المشاعر، فالناس في حاجة إلى كنف رحيم وإلى رعاية فائقة وإلى بشاشة سمحة، وإلى ود يسعهم وحلم لا يضيق بجهلهم وضعفهم ونقصهم، في حاجة إلى قلب كبير يعطيهم ولا يحتاج منهم إلى عطاء، يحمل همومهم ولا يعنيهم بهمه ويجدون عنده دائما الاهتمام والرعاية والعطف والسماحة والود والرضا، يقول ابن القيم في حق هؤلاء: (جعل الله انبساطهم مع الخلق رحمة لهم كما قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١٦/ ١٣٢ حديث رقم ٩٢٠٥.

(٣) سورة التوبة، الآية: ١٢٨.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾[1]، فالرب سبحانه بسط هؤلاء مع خلقه ليقتدى بهم السالك ويهتدي بهم الحيران ويشفى بهم العليل ويستضاء بنور هدايتهم ونصحهم ومعرفتهم في ظلمات دياجي الطبع والهوى، فالسالكون يقتدون بهم إذا سكتوا وينتفعون بكلماتهم إذا نطقوا فإن حركاتهم وسكونهم لما كانت بالله ولله وعلى أمر الله جذبت قلوب الصادقين إليهم وهذا النور الذي أضاء على الناس منهم هو نور العلم والمعرفة رحمة لهم)[2].

وهكذا كان قلب رسول الله ﷺ وهكذا كانت حياته مع الناس، ما غضب لنفسه قط ولا ضاق صدره بضعفهم البشري، ولا احتجز لنفسه شيئا من أعراض هذه الحياة، بل أعطاهم كل ما ملكت يداه في سماحة ندية، ووسعهم حلمه وبره وعطفه ووده الكريم، وما من واحد منهم عاشره أو رآه إلا امتلأ قلبه بحبه نتيجة لما أفاض عليه ﷺ من نفسه الكبيرة الرحيبة، وكان هذا كله رحمة من الله به وبأمته[3]، وجماع القول في ذلك ما قاله العلامة ابن عثيمين – رحمه الله – : (الذي تدل عليه السنة المطهرة، سنة النبي ﷺ أن الواجب على الإنسان أن يدعو إلى الله تعالى بالحكمة وباللين وبالتيسير فقد قال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾[4]،

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٣ / ٣٠٢)، لمحمد بن أبي أبكر بن قيم الجوزية، تحقيق محمد حامد، طبعة دار الكتاب العربي، بيروت الطبعة الثانية ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.

(٣) النور الخالد محمد رسول الإنسانية لفتح الله كولن ١ / ٢٣٤، طبعة دار الشروق.

(٤) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

وقال الله تعالى له: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾[1]، وقال الله تعالى حين أرسل موسى وهارون إلى فرعون: ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾[2].

وأخبر النبي ﷺ: (أن الله يعطي على الرفق ما لا يُعطي بالعنف)[3]، وكان يقول إذا بعث بعثاً: (يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين)[4].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (وَإِن ما يحصل بِهَذِهِ الرَّحْمَة لا يحصل بغيرها لبَعض النُّفُوس)[5].

وما أحوجنا نحن المسلمين اليوم إلى داع وواعظ يتصف بصفات رسول الله ﷺ، فيستحق رحمة الله، فتلين له قلوب العباد ويلتفون حوله، ليعيدوا للإسلام ازدهاره، وللمسلمين مجدهم، قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾[6].

إن المبلِّغ هو بطل الشفقة والرحمة قبل كل شيء، لا يتوسل لدفع الآخرين إلى قبول الحق الذي يدعو إليه بالوسائل الخاطئة كاستعمال القوة والخشونة والإكراه، لأن استقرار الإيمان بالله في القلوب ليس

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

(٢) سورة طه، الآية: ٤٤.

(٣) أخرجه مسلم، ٢٢/٨ كتاب البر، باب فضل الرفق.

(٤) أخرجه البخاري، ٧/٣ كتاب الأدب، باب: قوله عليه الصلاة والسلام: «يسروا...»، ومسلم، ١٤١/٥ كتاب الجهاد، باب: الأمر بالتيسير وترك التنفير.- وأنظر قول ابن عثيمين –رحمه الله - في قسم العلم والدعوة (٢٨٢/٦).

(٥) جامع الرسائل لابن تيمية - رشاد سالم – (٣٦٩/٢).

(٦) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.

بهذه الوسائل قطعاً، بل الشفقة في الإرشاد تليّن القلوب وترقق الوجدان، وتجعلهما تستأنسان وتتهيآن لقبول الإيمان بالله وبرسوله ﷺ، المبلّغ يدفع مخاطبه إلى التصديق بالإقناع، فيحيطه بعلمه ويجذبه إليه بفضائله، فكل مَن يتعرّف ويشاهد المبلّغ، يشاهده أنموذج شخصية مجهزة بالفضائل، فلا شك أن تسليمه له ورضاه عنه، له أبلغ الأثر في قبول كلامه، بينما الجموع التي قُذف في قلوبهم الرعب، يتوجسون خيفة من شخص المبلّغ الذي يعرض المسائل في جو من الإكراه والاستبداد، فيتهيبون حتى الحقائق التي يعرضها. والحقائق التي يراد تبليغها مهما كانت حيوية وودّية، فالفتور لدى المبلّغين سيترك طابعه على السامعين. فمثل هذه الأطوار لا تأتي بخير قطعاً. علماً أنه لا يحق لأحد كائنا من كان أن يدفع الناس إلى الفتور عن الإسلام والخوف منه نتيجة أخطائه[1].

لقد اعتلت الشفقة الذروة في أخلاق الرسول ﷺ كما هي في جميع خصاله الأخرى. فلقد أسس ﷺ دعوته العظيمة على ركائز جليلة كالشفقة، وبلّغها في جو دافئ من الحنان والعطف. حيث يقول: (إنّما أنا لَكم مِثلُ الوالِد)[2]، وكيف لا، وهو الوالد الرؤوف الرحيم، نعم، إنه يفتح صدره ليضم كل فرد من أفراد أمته، فرداً فرداً، كما يضم الأب الرحيم ابنه الوحيد إلى صدره، وبالمقابل كل فرد من أفراد أمته يحبه أكثر من حبه لوالديه بل حتى من نفسه. بمعنى أن الصفة التي يجب أن تلازم المبلّغ والداعية هي: المحبة النابعة من الشفقة والحنان، والسلوك الذي يقابل بالاحترام. هذه الصفة لها امتياز خاص،

---

(١) النور الخالد محمد رسول الإنسانية لفتح الله كولن ١/ ٢٣٤.

(٢) أخرجه النسائي في سننه ١/ ٣٨ (كتاب الطهارة – باب النهي عن الإستطابة بالروث حديث رقم (٤٠) وأخرجه ابن ماجة في سننه ١/ ٢٠٨ (كتاب الطهارة – باب الاستنجاء بالحجارة – حديث رقم ٣١٣ وأخرجه أحمد في مسنده ١٢/ ٢٤٧).

لأنه لا محل للمحبة والاحترام فيما يخلو من الشفقة والرأفة نعم ربما يُدفع الناس بالقوة إلى الطاعة في أمور معينة، إلا أنكم لن تدفعوا أحداً إلى محبة الحقائق التي تريدون تبليغها. وفي الحقيقة ليس أمام الشفقة والرحمة باب مسدود لا يمكن فتحه. فجبال الثلج التي لا تذوّب بالشفقة والرحمة لا يذوّبها شيء قطعاً. لذا إن كنتم تريدون ربط الناس بعضهم ببعض بمحبة دافئة عليكم أن تطووهم تحت جناح الرحمة والشفقة أولاً. وما لم تعفوا عن تقصيرات الناس وأخطائهم، وما لم تظهروا لهم الحقيقة مفعمة بالشفقة والحنان، لن تحلّوا حلاً جذرياً أية مسألة من مسائل الناس الفردية والجماعية.

يعلّمنا الرسول ﷺ كيفية سلوكنا أمام أخطاء الأمة وتقصيراتهم بهذه الصورة التمثيلية: **(إنّما مَثَلي ومَثَل أمّتي كمثل رجل استوقد نارا فجعلت الدّوابّ وَالفَراشُ يَقَعْنَ فيه فأنا آخِذٌ بحُجَزِكم وأنتم تَقَحَّمون فيه)**[1] يفتح الرسول الكريم ﷺ بهذا المثال طريقاً واسعاً جداً للإرشاد، ويوضح أن من سار في هذا الطريق يوصل التبليغ إلى جموع عظيمة في المجتمع، بينما النظرات المخالفة والأفكار المباينة لهذا الطريق تؤدى إلى التردي والاضمحلال، وأدهاها دفع الناس إلى الهلاك، وهذه حقيقة فأنتم أيها الدعاة بأيديكم الشفيقة الحنونة ترشدون الناس على طريق الخروج من المعاصي والآثام إلى طريق الطاعة والإيمان الخالص الذي يبحثون عنه. فإذا تقربتم إلى هؤلاء بالإشفاق عليهم وبينتم لهم المسائل ضمن رحمة ورأفة موزونة، فسينظرون إليكم وإلى ما تقدمونه لهم من مسائل بعين اللطف، وإن لم يتقبلوها، هذه حقيقة مشاهدة، حيث إنه قد انشرح بالإيمان قلوب

(١) أخرجه مسلم في صحيحة ٦٣/٧ (كتاب الفضائل – باب الشفقة على أمته رقم الحديث ٦٩٥).

من لا نتوقعه من أناس وفيما لا ننتظره من زمان، ولهذا مئات الألوف من الأمثلة. ولأنكم أصبحتم سبباً لهدايتهم فسيظلون طوال عمرهم في شكران لجميلكم، فضلاً عن أنه يسجّل في سجل حسناتكم مثل ما يقومون به من أعمال صالحة.

وهكذا على مبلّغي اليوم ومرشديه أن ينظروا من هذه الزاوية إلى الناس ومن يريدون دعوتهم وتوجيههم، فلا تليق بالداعية الحدّةُ والضرب والشدة والفظاظة، أما الكذب والمنافع السياسية فبعيدة عنه بفراسخ عديدة.

فالداعية ليس إلاّ مثال الحب والشفقة والرحمة وفدائيَّ المحبة.

ومن تنتظره القلوب الظمأى إلى الإرشاد هو هذا الداعية. وقدوتنا في هذا سيدنا الرسول الأعظم ﷺ، انظروا إليه، إنه لأجل أن يقول الناس " لا إله إلاّ الله" مرة واحدة، تعرّض إلى مهالك كثيرة وعانى معاناة شديدة، والحال أن الذين رشقوه وأدموه، وضيقوا عليه الخناق ووضعوا سلا الجزور على رأسه وهو في الصلاة، والأشواكَ في طريقه، ما كان يريد لهم إلاّ الهداية و دخولهم الجنة، يريدها حتى لأعدائه. فما كان ينتظر منهم شيئاً لنفسه قط، فلقد رُشق بالطائف وأدميت قدمه الشريفة ووجهه المبارك حتى احتمى إلى بستان، كان معه زيد ﷺ، وسعى المَلَك لإمداده قائلاً: **"إن شئتَ أن أُطبقَ عليهمُ الأخشبَين"، ولكن هذا الرؤوف الرحيم رفع يديه قائلاً: (أرجو أَن يُخرج الله مِن أصلابهم مَن يعبد الله وحده لا يشركُ به شيئا)**[1] ولم يرد أن تصيبهم أية مصيبة.

(١) أخرجه البخاري ٤٠/٤ (كتاب بدأ الخلق – باب ذكر الملائكة – حديث رقم ٤٧٥٤) ومسلم في صحيحة ١٨١/٥ (كتاب الجهاد والسير – باب ما لقي النبي من أذى المشركين – حديث رقم ٤٧٥٤).

وكذا في ساحة الحرب، عندما انكسرت سنّه الشريفة، ودخل جزء من مغفره في وجهه المبارك وقعت قطرات من دمه الطاهر إلى الأرض، فرفع يديه إلى السماء كأنه يريد أن يصدّ غضب الله بالدعاء فقال: **(اللهمّ اغفر لقومي فإنّهم لا يعلمون)**[1]، فصدّ بذلك البلاء الذي قد ينزل على الكفار، وواضح جداً تفجّر الرحمة والشفقة من كل كلمة من هذا الدعاء، وأقول: إن الشباب الذي يضطرب بآلام المعاصي والكفر يحتاج إلى إسباغ رحمتكم ورأفتكم عليه، فلن تحصدوا شيئاً بالقوة والإكراه.

فالإسلام رحمة للبشرية ومحمد ﷺ إنما أرسل رحمة للعالمين، من آمن به ومن لم يؤمن به على السواء، والبشرية اليوم لفي أشد الحاجة إلى حس هذه الرحمة وندائها.

وهي قلقة حائرة، شاردة في متاهات المادية، وجحيم الحروب، وجفاف الأرواح والقلوب.

ونحن ندعو الشعوب غير الإسلامية وبخاصة المفكرين منهم والمثقفين القادرين على دراسة حقيقة الإسلام، أن تجتهد في دراسة المبادئ الإسلامية في القرآن والسنة، وفي كتب الفقه الإسلامي، ويُعمِلوا عقولهم متجردين من دعايات من نصبوا أنفسهم أعداء للإسلام والمسلمين، من بعض الساسة والإعلاميين وبعض المتعصبين، ليطلعوا بأنفسهم على عظمة الإسلام الذي لو حمله أي شعب من شعوب الأرض، في الغرب أو الشرق، لقاد به العالم إلى مراقي الفلاح والتقدم والحضارة النافعة السليمة من آفات الظلم والفساد الذي انتشر في الأرض اليوم بسبب البعد عن منهج الله.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين...

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحة ٤/٢١٤ (كتاب التفسير – باب قوله –حديث رقم ٣٤٧٧) ومسلم في صحيحة ٥/١٧٦ (كتاب السير والجهاد – حديث رقم ٤٧٤٧).

الخاتمة

وفي النهاية لا يسعني إلا أن أقول أن قيمة الرحمة متشعبة في رسالة الإسلام ولا يمكن لباحث أن يستوفي جميع أطر الرحمة في الإسلام وما قدمته غيض من فيض، أردت من خلاله التنبيه على هذا الخلق الإسلامي الرفيع حتى يتلمسه المسلم في حياته علاوة على الدعاة والمرشدين.

ويمكن أن نرصد من خلال العرض السابق جملة من النتائج تتمثل في:

١- دعا الإسلام إلى رحمة عامة لا تختص بالمسلمين وحدهم ، بل هي شاملة لهم ولغيرهم من المخلوقات في الدنيا.

٢- أن الإسلام نادى بإنسانية واحدة تذوب فيها الفوارق الجنسية والجغرافية. لتلتقي في عقيدة واحدة ونظام اجتماعي واحد.

٣- أن رحمة الضعفاء سمة من سمات الشريعة الإسلامية فقد حثت على الترفق بالضعفاء من أفراد المجتمع والأخذ بأيديهم نحو الكرامة الإنسانية.

٤- أن الشريعة الإسلامية كانت الأسبق عناية بحقوق الإنسان والدعوة إلي قيم العدالة والمساواة والحرية.

٥- الشريعة الإسلامية كانت الأسبق رعاية لحقوق الحيوان بل والأكثر واقعية وتنظيما وذلك لأن رعاية هذه الحيوانات كانت بأمر الشارع الحكيم فكان المنطلق إيمانياً وواجباً دينياً في المقام الأول، فالحيوان البهيم، قد أعطاه الإسلام حظه من الرحمة والشفقة والإحسان.

٦- القول بتعارض إقامة الحدود مع خلق الرحمة دعوى باطلة ففي تطبيق الحدود الرحمة التامة لأن في إقامتها الحفاظ على المقاصد الشرعية التي لا تستقيم الحياة إلا بها فهي رحمة للمجتمعات لأنها سوف تحقق الأمان الذي افتقدته البشرية في هذه.

٧- دعوى أن الإسلام يدعوا إلي إراقة الدماء دعوى باطلة وذلك لان الجهاد في سبيل الله لم يشرع لقتل الناس لإكراههم على ترك دينهم والدخول في الإسلام، وإنما شرع لرد عدوان.

المصادر والمراجع:

أ- القرآن الكريم.

ب- كتب السنة والمتون:

١ - الجامع الصحيح، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله): دار الشعب – القاهرة الطبعة: الأولى، ١٤٠٧ – ١٩٨٧م.

٢ - الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم: أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري طبعة دار الجيل بيروت.

٣ - سنن النسائي المجتبى من السنن، أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب الطبعة الثانية، ١٤٠٦ - ١٩٨٦تحقيق: عبدالفتاح أبو غدة.

٤ - سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني دار الكتاب العربي - بيروت.

٥ - سنن الترمذي ، الجامع الصحيح سنن الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي، طبعة دار إحياء التراث العربي – بيروت تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون.

٦ - سنن ابن ماجة ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني الناشر: مكتبة أبي المعاطي.

٧ - موطأ مالك - رواية يحيى الليثي مالك بن أنس أبو عبدالله الأصبحي الناشر: دار إحياء التراث العربي – مصر تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.

٨ - مسند أحمد بن حنبل ، أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني الناشر: مؤسسة قرطبة – القاهرة.

٩ - المعجم الكبير، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني.

ج- مراجع متنوعة:

١- إحياء علوم الدين، محمد بن محمد الغزالي أبو حامد، دار المعرفة – بيروت.

٢- التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت – لبنان الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

٣- جامع الرسائل، تقي الدين أبو العَباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي المحقق: د. محمد رشاد سالم، الناشر: دار العطاء – الرياض الطبعة: الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

٤- حقائق الاسلام في مواجهة حملات التشكيك د/ محمود حمدي زقزوق وآخرين طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية القاهرة.

٥- علل وأدوية، محمد الغزالي، دار نهضة مصر الطبعة: الأولى.

٦- المحاور الخمسة للقرآن الكريم محمد الغزالي دار نهضة مصر، الطبعة: الأولى.
٧- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، دار الكتاب العربي -بيروت الطبعة الثانية، ١٣٩٣هـ- ١٩٧٣م، تحقيق: محمد حامد الفقي.
٨- المفردات في غريب القرآن، الحسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الأصفهاني أبو القاسم دار العلم الدار الشامية مكان الطبع: دمشق - بيروت سنة الطبع: ١٤١٢ هـ، تحقيق: صفوان عدنان داودي.
٩- معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا المحقق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر الطبعة: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
١٠- نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي مؤسسة الرسالة - لبنان/ بيروت، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، الطبعة: الأولى.
١١- النور الخالد (محمد مفخرة الإنسانية) فتح الله كولن - طبعة دار الشروق ٢٠٠٢م.
١٢- هذا ديننا محمد الغزالي طبعة دار الشروق القاهرة.